من مـــات على التوحـــــيد دخل الجنـــــة قطعـــــاً

بحث في دراسات في كتب السنة ٢
عبد الفتاح ايت بلخير
قسم: الحديث
العلوم الإسلامية ـ جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
AC222@lms.mediu.edu.my

خلاصة:
هذا البحث يتدارس مسالة مهمة ألا وهى دخول الجنة لمن مات على التوحيد، لقول النبي-صلى الله عليه وسلم- (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)،لكن سنرى تفصيلا مهما في المسألة قد ذكره الفقهاء-رحمهم الله تعالى-

كلمات مفتاحية:
حديث عثمان بن عفان-رضي الله عنه-متنا وسندا ـ نظرة حديثية حول الحديث- كلام الفقهاء في الأمر

I. المقدمة :

إن من الأمور المهمة اعتقادها اعتقادا جازما أن من مات على التوحيد فإن الله تعالى قد ضمن له-فضلا منه ورحمة-أن يكون مؤاله الأخير في الجنة؛عن شاء ادخله اياها دون سبق عذاب،وان شاء طهره من ذنوبه في النار- عدلا منه-ثم يكون مصيره في الأخير في الجنة.وسنبحث في المسألة من خلال المسند الصحيح لمسلم- رحمه الله-.

II. موضوع المقالة :

قال الإمام مسلم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب كلاهما عن إسماعيل بن إبراهيم قال أبو بكر: حدثنا بن عُليا عن خالد قال: حدثني الوليد بن مسلم عن حمران عن عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة))

قال الإمام النووي:

" هذا الباب فيه أحاديث كثيرة، وتنتهي إلى حديث العباس بن عبد المطلب -رضي الله عنه- ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، واعلم أن مذهب أهل السنة، وما عليه أهل الحق من السلف والخلف أن من مات موحدًا دخل الجنة قطعًا على كل حال، فإن كان سالمًا من المعاصي، كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونه بالبلوغ، والتائب توبة صحيحة من الشرك، أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته، والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلًا، فكل هذا الصنف يدخلون الجنة، ولا يدخلون النار أصلًا، لكنهم يردونها على الخلاف المعروف في الورود.

والصحيح: أن المراد به المرور على الصراط، وهو منصوب على ظهر جهنم أعاذنا الله منها ومن سائر المكروه.

وأما من كانت له معصية كبيرة، ومات من غير توبة، فهو في مشيئة الله -تعالى- فإن شاء عفا عنه، وأدخله الجنة، أو لا، وجعله كالقسم الأول، وإن شاء عذبه القدر الذي يريده -سبحانه وتعالى- ثم يدخله الجنة، فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد، ولو عمل من المعاصي ما عمل، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر، ولو على من أعمال البر ما عمل.

هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة، وقد تظاهرت أدلة الكتاب، والسنة، وإجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة، وتواترت بذلك نصوص تَحْصِلُ العلم القطعي، فإذا تقررت هذه القاعدة حمل عليه ا جميع ما ورد من أحاديث الباب وغيره، فإذا ورد حديث في ظاهره مخالفة وجب تأويله عليها؛ ليجمع بين نصوص الشرع، وسنذكر من تأويل بعضها ما يعرف به تأويل الباقي -إن شاء الله تعالى- و أعلم.

وأما شرح أحاديث الباب، فنتكلم عليها مرتبة لفظًا ومعنى إسنادًا ومتنًا، فقوله في الإسناد الأول: (عن إسماعيل بن إبراهيم)، وفي رواية أبي بكر بن أبي شيبة، حدثنا ابن علية، عن خالد قال: حدثني الوليد بن مسلم، عن حمران، عن عثمان -رضي الله عنه- قال: قال رسول -صلى الله عليه وسلم-: ((من مات وهو يعلم أن لا اله إلا دخل الجنة .))

أما إسماعيل بن إبراهيم فهو بن علية، وهذا من احتياط مسلم -رحمه الله- فإن أحد الراويين قال: بن علية، والآخر قال إسماعيل ابن إبراهيم، فبينهما ولم يقتصر على أحدهما، و(علية) أم إسماعيل، وكان يكره أن يقال له: ابن علية، وقد تقدم بيانه.

وأما (خالد) فهو ابن مهران الحذاء كما بينه في الرواية الثانية، وهو ممدود، كنيته أبو المنازل بالميم المضمومة والنون والزاي واللام، قال أهل العلم: لم يكن خالد حذاء قط ولكنه كان يجلس إليهم، فقيل له الحذاء لذلك هذا هو المشهور، وقال فهد بن حيان بالفاء: إنما كان يقول: احذوا على هذا النحو، فلقب بالحذاء. وخالد بعد في التابعين.

وأما الوليد بن مسلم بن شهاب العنبرى البصرى أبو بشر فروى عن جماعة من التابعين، وربما اشتبه على بعض من لم يعرف الأسماء بالوليد بن مسلم الأموى مولاهم الدمشقي أبي العباس صاحب الأوزاعي، ولا يشتبه ذلك على العلماء به، فإنهما مفترقان في النسب إلي القبيلة، والبلدة، والكنية، كما ذكرنا، وفي الطبقة، فإن الأول أقدم طبقة، وهو في طبقة كبار شيوخ الثاني، ويفترقان أيضًا في الشهرة، والعلم، والجلالة، فإن الثاني متميز بذلك كله.

وقال العلماء: انتهى علم الشام إليه وإلى إسماعيل بن عياش، وكان أجلَّ من ابن عياش -رحمهم الله أجمعين- و أعلم.

وأما (حمران) فبضم الحاء المهملة وإسكان الميم، وهو حمران بن أبان مولى عثمان بن عفان -رضي الله عنه- كنية حمران أبو يزيد كان من سبي عين التمر.

وأما معنى الحديث، وما أشبهه، فقد جمع فيه القاضي عياض -رحمه الله- كلامًا حسنًا، جمع فيه نفائس، فأنا أنقل كلامه مختصرًا، ثم أضم بعده إليه ما حضرني من زيادة.

قال القاضي عياض -رحمه الله-: اختلف الناس فيمن عصى الله -تعالى- من أهل الشهادتين، فقالت المرجئة: لا تضره المعصية مع الإيمان، وقالت الخوارج: تضره، ويكفر بها، وقالت المعتزلة: يخلد في النار إذا كانت معصيته كبيرة، ولا يوصف بأنه مؤمن ولا كافر، ولكن يوصف بأنه فاسق، وقالت الأشعرية: بل هو مؤمن، وإن لم يغفر له وعذب، فلا بد من إخراجه من النار، وإدخاله الجنة، قال: وهذا الحديث حجة على الخوارج، والمعتزلة.

وأما المرجئة: فإن احتجت بظاهره قلنا: محمله على أنه غفر له، أو أخرج من النار بالشفاعة، ثم أدخل الجنة، فيكون معنى قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((دخل الجنة)) أي: دخلها بعد مجازاته بالعذاب، وهذا لا بد من تأويله لما جاء في ظواهر كثيرة من عذاب بعض العصاة، فلا بد من تأويل هذا لئلا تتناقض نصوص الشريعة.

وفي قوله -صلى الله عليه وسلم-: وهو يعلم إشارة إلي الرد على من قال من غلاة المرجئة: إن مظهر الشهادتين يدخل الجنة، وان لم يعتقد ذلك بقلبه، وقد قيد ذلك في حديث آخر بقوله -صلى الله عليه وسلم- ((غير شاكٍ فيهما))، وهذا يؤكد ما قلناه .

قال القاضي: وقد يحتج به أيضًا من يرى أن مجرد معرفة القلب نافعة دون النطق بالشهادتين لاقتصاره على العلم ومذهب أهل السنة: أن المعرفة مرتبطة بالشهادتين لا تنفع إحداهما، ولا تنجى من النار دون الأخرى إلا لمن لم يقدر على الشهادتين لآفة بلسانه، أو لم تمهله المدة ليقولها، بل اخترمته المنية، ولا حجة لمخالف الجماعة بهذا اللفظ إذ قد ورد مفسرًا في الحديث الآخر: ((من قال لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا اله إلا الله، وأني رسول الله-))

وقد جاء هذا الحديث وأمثاله كثيرة في ألفاظها اختلاف، ولمعانيها عند أهل التحقيق ائتلاف، فجاء هذا اللفظ في هذا الحديث، وفي رواية معاذ عنه -صلى الله عليه وسلم- ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة))

وفي رواية عنه -صلى الله عليه وسلم-: ((من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة)) وعنه -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من عبد يشهد أن لا اله إلا الله، وأن

محمدًا رسول الله إلا حرمه الله على النار)) ونحوه في حديث عبادة بن الصامت، وعتبان بن مالك، وزاد في حديث عبادة: ((على ما كان من عمل))

وفي حديث أبي هريرة: ((لا يلقى الله -تعالى- بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق)) وفي حديث أنس: ((حرم الله على النار من قال لا اله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله -تعالى))

وهذه الأحاديث كلها سردها مسلم -رحمه الله- في كتابه، فحكى عن جماعة من السلف -رحمهم الله- منهم بن المسيب: أن هذا كان قبل نزول الفرائض والأمر والنهي.

وقال بعضهم: هي مجملة تحتاج إلي شرح، ومعناه من قال الكلمة، وأدى حقها وفريضتها، وهذا قول الحسن البصري، وقيل: إن ذلك لمن قالها عند الندم والتوبة ومات على ذلك. وهذا قول البخاري.

وكذلك ما ورد في حديث عبادة من مثل هذا، ودخوله من أي أبواب الجنة شاء، يكون خصوصًا لمن قال ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان، والتوحيد الذي ورد في حديثه، فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته، ويوجب له المغفرة والرحمة، ودخول الجنة لأول وهلة -إن شاء الله تعالى- والله أعلم.

هذا آخر كلام القاضي عياض -رحمه الله- وهو في نهاية الحسن.

وأما ما حكاه عن ابن المسيب وغيره، فضعيف وباطل، وإن الزاوي بعد هذه الأحاديث أبو هريرة -رضى الله عنه- وهو متأخر الإسلام أسلم عام خيبر سنة سبع بالاتفاق، وكانت أحكام الشريعة مستقرة، وأكثر هذه الواجبات كانت فروضها مستقرة، وكانت الصلاة، والصيام، والزكاة، وغيرها من الأحكام قد تقرر فرضها، وكذا الحج على قول من قال: فرض سنة خمس أو ست، وهما أرجح من قول من قال: سنة تسع، والله أعلم.

وذكر الشيخ أبو عمرو ابن الصلاح -رحمه الله تعالى- تأويلًا آخر في الظواهر الواردة بدخول الجنة بمجرد الشهادة، فقال: يجوز أن يكون ذلك اقتصارًا من بعض الرواة نشأ من تقصيره في الحفظ والضبط لا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بدلالة مجيئه تامًا في رواية غيره، وقد تقدم نحو هذا التأويل، قل: ويجوز أن يكون اختصارًا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما خاطب به الكفار عبدة الأوثان ممن كان توحيدهم لله -تعالى- مصحوبًا بسائر ما يتوقف عليه الإسلام، ومستلزمًا له، والكافر إذا كان لا يقر بالوحدانية كالوثني والثنوي فقال: لا اله إلا الله، وحاله الحال التي حكيناها حكم بإسلامه، ولا نقول، والحالة هذه ما قاله بعض أصحابنا من أن من قال لا اله إلا الله يحكم بإسلامه، ثم يجبر على قبول سائر الأحكام، فإن حاصله راجع إلى أنه يجبر حينئذ على إتمام الإسلام، ويجعل حكمه حكم المرتد إن لم يفعل من غير أن يحكم بإسلامه بذلك في نفس الأمر، وفي أحكام الآخرة، ومن وصفناه مسلم في نفس الأمر، وفي أحكام الآخرة. والله أعلم -انظر شرح الإمام النووي على صحيح مسلم.

وقال القاضي عياض-رحمه الله-:

" وقوله: ((من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة)) قال الإمام: واختلف الناس، فمن عصى الله من أهل الشهادتين، فقالت المرجئة: لا تضره المعصية مع الإيمان، وقالت الخوارج: تضره ويكفر بها، وقال المعتزلة: يخلد في النار إذا كانت المعصية كبيرة، ولا يوصف بأنه مؤمن ولا كافر، ولكن يوصف بأنه فاسق، وقال الأشعرية: بل هو مؤمن، وإن لم يغفر له وعُذب، فلا بد من إخراجه من النار وإدخاله الجنة، وهذا الحديث حجة على الخوارج والمعتزلة، وأما المرجئة: فإن احتجت بظاهره على صحة ما قالت به، قلنا: محمله أنه غفر له، أو أخرج من النار بالشفاعة، ثم أدخل الجنة، فيكون المعنى في قوله: ((دخل الجنة)) أي: دخلها بعد جازاته بالعذاب، وهذا لا بد من تأويله لما جاءت به ظواهر كثيرة من عذاب بعض العصاة، فلا بد من تأويل هذا الحديث على ما قلناه لئلا تتناقض ظواهر الشرع.

وفي قوله في هذا الحديث: ((وهو يعلم)) إشارة إلى الرد على من قال من غلاة المرجئة: إن يظهر الشهادتين يدخل الجنة، وإن لم يعتقد ذلك بقلبه، وقد قيد ذلك في حديث آخر بقوله: ((غير شاكٍ فيها)) وهذا أيضًا يؤكد ما قلناه..

وقد يحتج به أيضًا من يرى أن معرفة القلب مجردة نافعة دون النطق بالشهادتين لاقتصاره على العلم، ومذهب أهل السنة أن المعرفة مرتبطة بالشهادتين لا تنفع إحداهما، ولا تنجي من النار دون الأخرى إلا لمن لم يقدر عليها من آفة بلسانه، أو لم تمهله المدة لقولها: "حتى أتكلم"، ولا حجة للمخالف للجماعة بهذا اللفظ؛ إذ قد ورد مفسرًا في الحديث الآخر بقوله: ((من قال لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله)) وقد جاء هذا الحديث، وأمثلة له كثيرة في ألفاظها اختلاف، ولمعانيها عند أهل التحقيق ائتلاف، وللناس فيه خبط كثير، وعن السلف خلاف مأثور، فجاء هذا اللفظ في هذا الحديث، وجاء في رواية معاذ عنه -عليه السلام-: ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة))، وعنه في رواية أخرى: ((من لقي لا يشرك به شيئًا دخل الجنة)).

وعنه في رواية أخرى: ((ما من عبد يشهد أن لا إلا إلا الله وأن محمدًا رسول الله صادقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار))، ونحوه في حديث عبادة بن الصامت وعتبان بن مالك، وزاد في حديث عبادة: ((على ما كان من عمل))

وفي حديث أبي هريرة: ((لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍ فيهما إلا دخل الجنة))، وفي حديث آخر: ((فيحجب عن الجنة)).

وفي حديث أبي ذر وأبي الدرداء: ((ما من عبد قال لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق)).

وفي حديث أنس: ((حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله))

وهذه الأحاديث كلها قد سردها مسلم في كتابه، فحكى عن جماعة من السلف منهم ابن المسيب، وغيره أن هذا كان قبل أن تنزل الفرائض والأمر والنهي، وذهب بعضهم إلى أنها مجملة تحتاج إلى شرح، ومعناه: من قال الكلمة وأدى حقها وفريضتها، وهو قول الحسن البصري، وذهب بعضهم إلى أن ذلك لمن قالها عند التوبة والندم ومات على ذلك، وهو قول البخاري.

وهذه التأويلات كلها إذا حملت الأحاديث على ظاهرها، وأما إذا نُزلت تنزيلها لم يشكل تأويل على ما بينه المحققون.

فتقرر أولاً أن مذهب أهل السنة بأجمعهم من السلف الصالح، وأهل الحديث، الفقهاء، والمتكلمين على مذهبهم من الأشعريين؛ أن أهل الذنوب في مشيئة الله -تعالى- وأن كل من مات على الإيمان، وشهد مخلصًا من قلبه بالشهادتين، فإنه يدخل الجنة، فإن كان تائبًا، أو سليمًا من المعاصي والتبعات، دخل الجنة برحمة ربه، وحُرم على النار بالجملة، فإن حلمنا اللفظين الواردين على هذا فيمن هذه صفته كان بينًا، وهو التفات الحسن والبخاري في تأويلهما، وإن كان هذا من المخلطين بتضييع ما أوجب الله عليه، أو فعل ما حرم عليه، فهو في المشيئة لا يقطع في أمره بتحريمه على النار، ولا باستحقاقه لأول حاله الجنة، بل يقطع أنه لا بد له من دخول الجنة آخرًا، ولكن حاله له قبل في خطر المشيئة وبرزخ الرجاء والخوف، إن شاء ربه عذبه بذنبه، أو غفر له بفضله، وإلى هذا التفت من قدم قوله من السلف، لكن قد يصح استقلال ألفاظ هذه الأحاديث بأنفسها على هذا التنزيل، فيكون المراد باستحقاق الجنة ما قدمناه من إجماع أهل السنة من أنه لا بد له من دخول كل موحد لها إما معجلًا معافى، أو مؤخرًا بعد عقابه، والمراد بتحريم النار تحريم الخلود، خلافًا للخوارج والمعتزلة في الوجهين، وينزل حديث: ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله)) خصوصًا لمن كان هذا آخر نطقه وخاتمة لفظه، وإن كان قبل مخلطًا، فيكون سببًا لرحمة الله له، ونجاته رأسًا من النار وتحريمه عليها، بخلاف من لمن يكن ذلك آخر كلامه من الموحدين المخلطين، وكذلك ما ورد في حديث عبادة من مثل هذا ودخوله من أي أبواب الجنة شاء، خصوصًا لمن قال ما ذكره -عليه السلام- وقرن بالشهادتين من حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه، فيكون له من الأجر ما يرجح بسيئاته ومعاصيه، ويوجب له المغفرة والرحمة ودخول الجنة لأول وهلة إن شاء الله تعالى، كما أشار إليه في الحديث، والله أعلم بمراد نبيه -انظر كتاب اكمال المعلم-.

المصادر والمراجع:

١- القرطبي، أبو العباس القرطبي- "كتاب المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم"-دار السلام

٢- النووي، يحيى بن شرف النووي-شرح النووي على صحيح مسلم(دار الفكر، ٦٦٧هـ